

مرحبا بالمعاناة كطاقة محرّكة للإبداع

ا.د/ ناهد سكر آل ربيعة

لقد قال بروتس لنفسه إن كل شيء عظيم في هذا الكون أبدعه العصاييون {المرضى الغير العقليين} لقد قاموا بتأليف كل الروائع واللوحات الجميلة، وآلاف من المعجزات الأخرى، لكننا لا نفكر في مقدار ما عاناه مؤلفو هذه الأعمال من ارق، طفح جلدي، ربو، و الاسوء من كل شيء الخوف من الموت، كل هذه ضغوط نفسيه يقول الفيلسوف نيتشه لم اشعر مطلقا بأنني أكثر سعادة إلا في فترات الألم العظيم، وذكر غيره أن الألم برأيه يقوم بتكثيف الإحساسات. واعتقد {أن الإنسان يحتاج للالم كي تستمر الحياة على نحو منظم مثلما تحتاج السفينه للريان} .

كما ذكر الرسام المشهور ادفار دي مونشي {دون الالم والمعاناة سأصبح سفينة تتلاعب بها الريح}. أشخاصا كثيرين ممن افقدهم القدر ما انعم به سواهم. غير انهم استطاعوا بعزمهم وإرادتهم ان يسجلوا صفحات مشرقه في تاريخ البشرية.

وان يصبحوا رواداً وعظماء، بين أجناسهم الهدف من هذا العرض كله كيف أن المعوق إنسان عاجز من ناحية غير انه طبيعي في باقي النواحي ، كما باستطاعته تفعيل إمكاناته الأخرى وتوظيف طاقاته الكامنة فيتخطى، بعزمه وتصميميه على الحياة الكثير ممن هم أسوياء.أضافه إلى ذلك فإننا نتوخى من هذه العبر تدعيم الإنسان بما فيهم الرياضي وتحفيزه لمواجهة الواقع والتغلب على مشاكله إذا ما قورنت مع هؤلاء وغيرهم وامثال هؤلاء الذين أبدعوا وكانوا محط أنظار أبناء البشرية جمعاء إعجابا واحتراما.

لنتقدي بهم:

1-بشار بن برد: نشء في بيئة عربية فصيحة (بني عقيل في العراق مدينة البصرة)فأخذه منهم فصاحتهم وتعلم الشعر ثم نبغ فيه نبوغا لم يعهده احد من قبيلته أعمى بالولادة و أصيب بالجدري فصار قبيح المنظر. وكان ضخم الجثة، شديد الذكاء جريء الفكر.

أول شاعر كبير في العربية ديوانه من اكبر دواوين الشعراء و اكثرها تنوعا امام الشعراء في زمانه وأستاذ أهل عصره من الشعراء.

عاش الحياة في ظلمه العمى. غير أن بصيرته دفعته ليكون متمايز عن سواه من المبصرين. اي ان عماء لم يفقده قوه الاراده والعقل.

ابو العلاء المعري: ولد في معرة النعمان، شاعر ومفكر، عاش حياته مكفوفاً بعد اصابته بالجدري وهو في الرابعة من عمره، درس في حلب وطرابلس وانطاكية وبغداد ثم عاد الى معرة فعاش فيها معتزلاً متزهداً، امتاز أبو العلاء المعري بالتشاؤم ليس بسبب فقدان البصر فحسب بل الى الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والاخلاقية حسب ما ذكر في المصادر الادبية اضافه الى وفاة والده المعيل له ثم فقد ه لاهمه. اعتزل بسبب فلسفي وروحي من الدهر لنفسه، ادرك ثلاثة انواع من السجن سجن الروح في الجسد، وسجن العمى وسجن البيت. الا انه لم يمنع الناس من زيارته فكان له تلاميذ. ان هذا الاعتزال نموذجاً لعلاقة المثقف بعصره. وكان اعتزالاً مثمراً. بحيث اصبح غريز الانتاج. فيعلم وينتقد ويرشد ويستقبل ويحتج فكان يواجه كل ظروف عصره باراده. المهم من هذا ان الشاعر والمفكر والفيلسوف واجه مشكلته وحزم امره على الانتصار مواصلاً الجهاد رغم فقدته للبصر تمسكاً بالبصيرة فجعل العقل مقياساً لجميع الاحكام. فبسلاح العقل اطلق طاقاته وواجه مشاكله.

طه حسين: اديب وناقد مصري كبير، لقب بعميد الادب العربي. فقد بصره في الثالثة من عمره. درس في الازهر وكان منطلق ثورته الفكرية في الجامعة الاهلية فرنسا حيث نال الدكتوراه في الادب. له وافر من كتب الأدب والنقد والقصة والسيرة. وكان طه حسن متميز بالذكاء، وبلطافة الشعور. يجادل ويناقش ويسال ويلح بالسؤال فنعت بالطالب الثائر مما دفعه الى ان يصبح من اشد المطالبين بالتطور والتغيير. سلك طريق العظمة خطوه بخطوه بثقه واراده وتصميم فجعل العقل هادياً ومعيناً على التوازن، واستطاع الانتصار على مشكلته. وان يصبح استاذاً جامعياً وعميداً ومديراً للجامعة ووزيراً للتعليم ورجل سياسة وصحافة واديباً وناقداً ومؤرخاً ومترجماً وصاحب فلسفه تربويه ومطالعا.

4- اميلي يوسف حداد: لبنانيه من قرية عين ابل على الحدود الجنوبية. مقعده لقد اصابها الشلل في الجزء الاسفل لكنها لم تياس من الحياة بل اخذت تتحدى المصائب وتدعوا غيرها الى تحديها، والتحدي لا يقتصر على مجابهه المصاعب بل يهدف الى التمرد والخلق والابداع وصولاً الى السعادة. حيث تقول {لن ندع اجدادنا يسبقوننا الى منابر الفخر. هم قهروا الصخور لينتجوا روع الجنائن، ونحن نقهر المصاعب لنتج ارواح الامجاد}. ان عظمة النفس الانسانية وعظمة الاراده التي تمتعت بها في قهر المصيبة، تفجر روح العزيمة والجمال والحب والتحدي.

5- انطونيو فيفالي: ايطالي مشهور بالموسيقى الدينية. مصاباً بالربو. لقد جعله المرض يكرس جهده لتأليف الموسيقى. وان يمتلك كل العناصر الصوتية والادائية بالتعبير عن نماذج موسيقية

رائعه تنسيقا وتنظيميا.وعلى الرغم من عجزه الصحي تكيف مع وضعه وان يبذل ولم يستسلم بل شق طريقه واثبت قدرته على المواجهه، ويكون مبدعا ومرجعا في الموسيقى لمشاهير الموسيقيين.فمقدور الانسان ان يتكيف ويتحدى وينتصر التي يمتاز بها الانسان التفكير والعقل.

6-مارسيل بروس: أصيب بمرض الربو وهو في العاشرة من عمره .حاز على عدة جوائز جائزة جونكور الادبيه كتب {الوتوبيوغرافيا}المعروفه ب{البحث عن الزمن الضائع}والتي تعتبر من أهم الأعمال التي تركت تأثيرات في المسار الروائي الحديث.كانت صحته الضعيفة مثار الاهتمام الشديد من والديه.بدأت أحزانه بوفاة والده وزادت الاحزان اكثر بوفاة والدته وكان في الثالثة عشر من عمره.ذات يوم سالوه (ما ابشع شيء ممكن ان يحدث لك وتعدده قمة البؤس)؟ فاجاب ان افقد امي.وبفقدان امه تبذدت اماله واصيب بالاكئاب.مع هذا كله اصبح ليس واحد من اساتذة الفلسفه العامه فحسب بل اكبر فلاسفة علم الحياة اذ يكشف عن سعة دراية باعماق الانسان.واثبت في ذاته ونجاحه ان الانسان قادر مهما كانت صحته او عجزه ان يشق طريق النجاح والابداع.

7-هيلين كيلر:نزل عليها المرض فاغلق عينيها واذنيها في السنه الاولى من عمرها.غير انها تمكنت ان تعيش حياة متكيفه مسروره في اماكن عده خلال مراحل حياتها وبظروف مختلفه.تابعت دراستها الثانويه والجامعيه ثم تخرجت وانصرفت للقراءه والتاليف وقد مكنتها شهرتها من التنقل عبر كثير من الدول حيث لقت الترحيب والتكريم من سائر رجال الفكر . من مؤلفاتها (قصة حياتي)وغيرها من الكتب والقصص ولها عشرات الكلمات والمقالات التي توحى بالشكر لله على نعمة الحواس وتدعو الى استعمالها فيما خلق من اجله.

كتبت في مقالتها (لو ابصرت ثلاثة ايام) ان افضل طريق واحسنها هي ان نعيش كل يوم كما لو سنموت غدا،فان مثل هذا الشعور سيقوي من قيمة الحياة ومتعتها في نظرنا بحيث ندرك كل الادراك النعم التي تحيط بنا.لا يعرف الانسان مقدار عاقبته الا عندما يكون طريق الفراش.ولا يعرف المرء مقدار النعمه الا عندما يسلب منها.لقد اقتنعت منذ زمن بعيد ان هؤلاء الذين يبصرون لا يرون الا قليلا ان نور البصر على حد تعبيرها(من اجمل مايدخل البهجه الى النفوس).

ولكن هذه المرأه المعجزه التي صارعت المرض وقسوة الطبيعة منذ طفولتها المبكره عمى وصمم فتركنتها فريسة للمعاناة لكن بقوة ارادتها وتصميمها ناضلت وتحدت وواجهت الصعاب.وتفوقت على نفسها فالمواجهه والتحدى والاراده والنجاح مثلا لسيرة حياتها.

8-لودفيل بيتهوفن:ولد في مدينة بون . اصيب بالصمم وهو في عز الشباب. وكان الجد المهمم الاكبر بحفيده لان الوالد لم يكن يهتم بامور المنزل،وكان قاسي القلب مما دفع بالجد الى الاهتمام به ويجلس على ركبته قبالة البيانو ويدعه يلعب عليه بانامله .عاش بيتهوفن طفولته في اشد الحاجة الى الحنان والمحبه لان والده قلما احسن معاملته بسبب تعوده على تناول المشروبات.ابتدأ يتعلم دروسا على البيانو والكمان بواسطة والده الذي تنبأ له بالنبوغ منذ الصغر.وان الوالد كان يجد دائما لضره مهما فعل.ولاشتداد الحاجة الى المال اصطحبه والده في الثامن من عمره كي يقدم بعض المعزوفات الى جانب الفرقة.عند دخوله القاعة استعدادا لتقديم حفلته سمع احد يقول ...اني اضع شرطا ان موزارت في عامه السادس عزف احسن من بيتهوفن الان.....مما اضعف من حماسه وجعل يتردد وهو يتوجه الى المسرح(ليكن الله في عونني).حاول مسح العرق الذي ينصب من جسده ازاح شعره المستعار من مكانه فظهر من تحته شعره الحقيقي مما اضحك الجمهور ولا حظ ان الجمهور لايقدره كما ينبغي لم تضج القاعة بالتصفيق ولم يطلبوه ثانيه لمتابعة العزف .لقد تالم من سلوك الجمهور اتجاهه، وعندما ساله والده عما فعله لا ضحاك الجمهور قال لا اعرف غير ان الاب صفعه وجهه واذنيه قائلا ان الفرق بينك وبين موزارت شاسع .كان بيتهوفن في فراشه قال لنفسه انا لست موزارت بل بيتهوفن ،سأبرهن على مقدرتي الموسيقيه في مناسبة ثانيه.عزم بتصميم الاراده على ان يشق طريقه في الحياة وان يسلك درب الموسيقى اثباتاً لنبوغه وهو ابن الثامن.تعلم الموسيقى وتمرن على المقطوعات قبل اداء المهمه وهو في الثانيه عشر من عمره.الف (سوناتات الحاكم) الثلاث في السنه الثانيه عشر.بعدها عاش بيتهوفن حياة الفقر والوحده لانه فشل في ايجاد اي عمل .ومما زاد سوء حظه بمرض والدته الشديد وهكذا اعاد ادراجه ليودع اعز الناس الى قلبه.عمل بفرقة الحاكم فاصطلحت اموره وشعر باستقلاله وامانه من الفقر. ذاع صيت بيتهوفن في الثامن عشر كموسيقي بارع.في الخامسه والعشرين اصبحت له مكانة خاصه في عالم الموسيقى واصبح المشرف على غيره من الموسيقيين .وضع مخطوطات لبضع مقطوعات التي لم يصدق سامعها كان في اشد ساعات البؤس والالام والحزن .ساعت احواله الماديه والصحيه اثناء الاحتلال الفرنسي للنمسا. لكن بقي يؤلف ويعزف فقدم الى احد الامراء والذين احبهم (سوناتا) في ثلاثة اقسام الوداع، الغياب، العوده.كان في سباق مع الزمن من دون ان يثنيه نابليون ولا حربه عن عزمه ولا الجوع والفقر والمرض.كان يمتلك قوه خارقه في التغلب على الصعوبات الصحيه والماديه والبيئيه قاوم الصمم، ونجح في ان يصبح ابو السيمفونيات ذو التصميم والاراده والصبر والعزم.